

مالك بدري

- ❖ المعهد العالمي للفكر الإسلامي - سلسلة أبحاث علمية (3): إسلامية علم النفس، الطبعة الثالثة، 1993 [117 صفحة من القطع الصغير].
- ❖ لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
- ❖ مجال البحث (الكتاب): أسلمة علم النفس - التفكير، علم النفس المعرفي.



يمهد الباحث بالدراسة المبسطة للتفكير في الخلق من منظور نفسي إسلامي وتوضيح قيمة (التفكير) العبادية من وجهة نظر علم النفس الحديث، وطبيعته ومراحل من وجهة نظر التراث الإسلامي، ثم التفكير في سنن الكون مقارنة بالطريقة العلمية.

فالتفكير - كما يعبر عنه الباحث - يدخل في إطار سيكولوجية التفكير. وهنا يستعرض الباحث الطريقة التي نشأت فيها مدارس علم النفس في بيئة علمانية وضعية تأثرت بالفيزياء والكيمياء والطريقة العلمية. ثم يأتي إلى مدارس علم النفس ويدخل المدرسة السلوكية التي أفرغت الإنسان من شعوره ومحتواه الفكري المعقد بعدما أفرغوه من محتواه الروحي، كل ذلك لكي يكون علم النفس علماً تجريبياً. ثم يحاكم المدرسة السلوكية من خلال المدرسة البايولوجية والمعرفة النفسية ليظهر فشلها وعقمها.

* ثم يدخل الباحث في جدلية العقل والدماع كما تراه المدارس النفسية وكما اثبتته الدراسات العصبية والفيزيولوجية من خطأ اعتقادهم بأن العقل هو الدماغ. ثم يتكلم الكتاب عن لغة الإنسان ليظهر دراسة علم النفس المعرفي الذي وجد أن اللغة ليست وسيلة للتخاطب والاتصال حسب، بل هي النظام الأساس الذي يستخدمه الإنسان في التفكير.

كما يستعرض بحوث Whorf صاحب نظرية النسبية اللغوية التي تعتبر أن خصائص اللغة التي تتحدثها جماعة معينة هي التي تحدد وسائل تفكير تلك الجماعة وتصورها للواقع الذي تعيشه.

بعد ذلك يتطرق إلى أبحاث علم النفس للتعرف على نشاطات الإنسان المعرفية الداخلية التي استفاد منها أخصائيو العلاج النفسي وسيكولوجية الشخصية بما كشفته من تفكير الإنسان الداخلي وأحاسيسه وتصوراتهِ لتشكل سلوكه الخارجي.

ثم يخلص المؤلف من هذا الإستطراد إلى أن الإستنتاجات التي وصل إليها علم النفس المعرفي في هذا المجال يؤكد صدق ما قرره الإسلام من أن التفكير في خلق الله هو العمود الفقري للإيمان الذي ينبثق عنه كل عمل خير.

* وفي الفصل الثاني يحاول المؤلف أن يميز ما بين التفكير والتفكير، وفيه يستهل المؤلف هذا الفصل بنظرة تراثية إسلامية عن الخواطر والأفكار التي تجول في النفس والتي يراها ابن القيم بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحي: فإن كان حباً خرج دقيقاً وإن كان رملاً وحصى وتبناً لتبين لهم بعد ذلك حقيقة ما يطحنون. ثم يدخل المؤلف في رأي الإمام الغزالي - نظرياً وعملياً - في هذا المجال الذي يرى أن الأخلاق الجميلة يكون اكتسابها بالرياضة، وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح، فكل صفة في القلب يفيض أثرها في الجوارح. كذلك يعرض الكتاب علاج الغزالي بالضد والنقيض والتدرب في العلاج. كذلك يرى الغزالي أن من يطيل الفكر يسهل عليه القيام بالطاعات والعبادات: فإن حصل العلم تغير حال القلب، وبغيره تتغير أعمال الجوارح، فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر.

* ويرى الباحث أن (التفكير) يمر بثلاث مراحل متداخلة تنتهي بالمرحلة الرابعة الأخيرة التي اصطلح عليها بالشهود:

1. المعارف التي تأتي عن طريق الإدراك الحسي المباشر (نظر، سمع، لمس...) أو غير مباشر (التخيل) أو قد يكون معارف عقلية مجردة (وهذه يتساوى بها الكافر والمؤمن).

2. مرحلة التذوق لدقة الصنع وجمال التنسيق والأحاسيس المرهفة والمشاعر المتدفقة التي قد تهتز لها القلوب بغض النظر عن إيمانها وكفرها.

3. والثالثة تكون بربط هذا التذوق لجمال الكون ودقة صنعه بمبدعه سبحانه وتعالى، وهذه هي النعمة الكبرى التي لا تكون إلا لمؤمن.

فمتى ما دام المؤمن على هذه الحالة وصل إلى المرحلة الرابعة التي يصبح التفكير فيها عادة متأصلة فيه، حتى يصبح كل شيء في بيئته مثيراً للفكر محركاً للتأمل في آلاء الله تعالى وفضله فيصل إلى مرحلة البصيرة والشهود.

* وفي الفصل الثالث يطرح المؤلف مسألة ما بين التفكير والتأمل الإرتقائي، بعدما أثبت هذا التأمل - بجذوره الهندية الشرقية القديمة - مقدرته الفائقة في علاج الأمراض المرتبطة بالمشاكل الإنفعالية والمعرفية وشفاء غيرها من الإضطرابات كالإدمان والقلق وشتى أنواع العصاب.

ثم يتساءل الباحث عن قيمة التفكير والتأمل من حيث هو عبادة بالنسبة للصحة النفسية والجسمية للمؤمن.

للإجابة يبدأ المؤلف بالأبحاث والكتب التي أجريت أخيراً لتأكيد قيمة التأمل الإرتقائي والعامل الروحي والإيماني ودوره الفاعل في علاج التوتر والقلق وضغط الدم والصداع النصفي والأرق وتخفيض نسبة الكولوسترول في الدم وغيرها من الإضطرابات النفس - جسمية. ليخلص الباحث إلى أن مقولة (العقل السليم في الجسم السليم) يمكن أن يقابلها كذلك مقولة (الجسم السليم في العقل السليم).

ثم يعرض المؤلف إشارات بسيطة لـ (Benson) للإستفادة من أساليب التفكير الباطني لليوغا والديانات الشرقية. وكذلك لنتائج (Le Shan) في كتابه (كيف تتأمل) الذي يذكر فيه أن مقاومة الجلد للتيار تزداد بدرجة قد تصل إلى 400% بسبب التأمل والتفكير.

* ثم يخلص الباحث إلى أن تركيز الذهن والتأمل الجاد في موضوع روحي أو قيمي معين - بغض النظر عن صحته أو عدمه - مع ترديد ألفاظه ومعانيه والإستغراق في حالة إسترخاء هادئة، يخلص الإنسان فيها نفسه من الخواطر والمشاكل اليومية ويحاول الخلو إلى إيقاعات ما وراء المادة واستشفاف ما وراء الحس.

ويرى المؤلف أن المؤمن المتفكر (المستغرق في التفكير في آلاء الله سبحانه ويردد عبارات التسبيح والتحميد والتكبير في جلسته بعد أداء الصلاة... إلخ) يجد كل الفوائد الصحية التي يلقاها الممارس للتأمل الإرتقائي، بل ويزيد عليها أضعافاً بسبب صحة عقيدته وبساطتها ونفاذ بصيرته ووضوح رؤيته الدينية، وتدريبه المستمر على التأمل والتفكر في صلاته وتسبيحه منذ نعومة أظفاره.

* وفي الفصل الرابع يتحدث المؤلف عن بعض الأساليب القرآنية في الحض على التفكير في الخلق والوجود والطبيعة وآلاء الله سبحانه واستجاشة الناحية الجمالية الفطرية في الإنسان. ثم يحضه كذلك على التفكير في نفسه هو (كإنسان) الذي يعتبره أهم مخلوق في هذه الأرض، فمرة يفصل له القرآن مراحل خلقه وتكوينه وأخرى بتكريمه وتفضيله وبكرم الله عليه ومثله ورحمته، ثم في أسرار هذا الجنس في توالده وتوارثه... إلخ، ويستعرض المؤلف جملة كبيرة من الآيات القرآنية الكريمة في هذا المجال.

* وفي الفصل الخامس ينظر المؤلف إلى التفكير كعبادة حرة طليقة، لأن التفكير في خلق السموات والأرض وما يقع عليها من أحداث لا يحده عائق من اختلاف الزمان ولا المكان ولا ماهية الأشياء، فهي عبادة حرة طليقة الإدراك وانطلاق لخيال المؤمن:

فمن الدعوة إلى النظر في الخلق، إلى تدبر مصائر الأمم السابقة، إلى التفكير في الآخرة، إلى التدبر في ماهية الأشياء.

* وفي الفصل السادس يعرج المؤلف إلى التفكير في الغيبات وحدود ذلك التفكير. فالإنسان لا يعرف إلا القليل جداً عن نفسه، أما حقيقة عقله وروحه ونفسه فأسرار مغلقة وكنوز مخفية، كذلك فيما يتعلق بالآخرة وحياة البرزخ ونعيم الجنة وعذاب الآخرة. وهنا يدخل المؤلف في التراث الإسلامي والصوفي فيما ذكر في هذا المجال من الغيبات ليؤكد أن المؤمن محظور عليه التفكير في ذات الله وله الحرية بعد ذلك أن يتفكر فيما يشاء.

* وهناك فروق فردية في التفكير كما يعتقد الباحث ويوضحه في فصله السابع، حيث يحدد ثمانية أبعاد ومتغيرات متداخلة تتظافر في تكوين هذه الفروق:

1. عمق الإيمان، فعمق الفكرة والتدبر يعتمد أولاً وقبل كل شيء على درجة إيمان الشخص وصلته بالله سبحانه وتعالى.
 2. القدرة على التركيز الذهني وهذه من خصائص المؤمن وسمات شخصيته وبقدرته الفطرية للتركيز الذهني دون تعب أو ملل.
 3. الحالة الإنفعالية والعقلية، فالتفكير يحتاج إلى الطمأنينة والهدوء النفسي والصحة الجسمية والنفسية.
 4. العوامل البيئية، أو البيئة التي يعيشها المؤمن ودرجة خلو ذهنه أو انشغاله بالمشكلات اليومية ومتاعب الحياة.
 5. درجة معرفة المؤمن بالشئ الذي يتفكر فيه، فكل إنسان في هذا الوجود يجد فيما حوله من عبر وآيات بقدر معرفته وعلمه فيما يتأمله.
 6. القدوة الصالحة وأثر الصحة، فالتفكير يشمل جميع المجالات المعرفية والعاطفية للإنسان، والمؤمن يزداد عمقاً وتجلياً بالمدائمة عليه ويربطه بذكر الله وتسبيحه.
 7. ماهية الأشياء، أي ماهية الشئ موضوع التدبر وأعمال الفكر وخصائصه.
 8. درجة ألفة المتفكر على الأشياء، فالتكرار الرتيب يفقد أعظم ظواهر هذا الكون روعتها وعظمتها، وكلما ازدادت الألفة نمت كثافة غشاوة التعود على أبصارنا حتى ننسى وجود أهم الأشياء بالنسبة لنا.
- * وفي الفصل الثامن والأخير من الكتاب يستعرض المؤلف التفكير في سنن الكون ليجعلها مقارنة بين العلم التجريبي والدين.
- ويرى المؤلف أن مشكلة العبور من الظواهر الكونية إلى خالقها تمثل الفرق الأساس بين العالم التجريبي المسلم وغير المسلم. ذلك بأن الخطوات الأولى في التفكير كعبادة (أو التفكير في بيئة الإنسان الخارجية في الأقل) هي الملاحظة الواعية والمشاهدة الدقيقة عن طريق الحواس، وهي ذات الخطوة الأساس التي تعتمد عليها الطريقة العلمية.

ويعطي المؤلف أمثلة كثيرة جداً عن العلماء المسلمين وما لاحظوه وشاهدوه وابدعوا في وصفه سواءً عن الطير أو النمل والحشرات بل حتى عن النمو العقلي للإنسان ونعمة سلب العقل عند الأطفال... كل هذه الأمثلة ليكشف لنا المؤلف عمق تفكير المتدبرين من علمائنا وقدرتهم على سبر أغوار الأشياء واكتشاف سنن الله في خلقه.

ثم يعطي المؤلف أمثلة عن نماذج تبين تطور العلم التجريبي في التراث الإسلامي كابن القيم والخوارزمي وجابر بن حيان والرازي.

□ □ □

عناوين رئيسية:

أسلمة المعرفة، أسلمة علم النفس، علم النفس المعرفي، جدلية العقل والدماع، التفكير والتفكير، التأمل الإرتقائي، التفكير والعبادة، الفروق الفردية في التفكير.

□ □ □

ملاحظات:

- لقد وفق الباحث كثيراً بربط التراث الإسلامي في النفس والإنسان والتفكير بموقف علم النفس منها باختلاف مدارسه وعلمائه. فكان يغوص في التراث ليلتقط أنفس جواهره ليصفها أو يحاكمها في منظور نفسي أو نتائج بحوث نفسية معاصرة ليعقد بها مقارناته واستنتاجاته.
- عند ذكر المؤلف للتأمل الإرتقائي ابتعد عن الفكر الصوفي، لغرض ما في نفس المؤلف وليس جهلاً به بالتأكيد، والتأمل عبارة عن ممارسة صوفية أياً كان مذهب أو دين أو عقيدة المتصوف: ابتداءً بالصوفية الأفلوطينية وانتهاءً باليوغا. وفي التراث الإسلامي فيض رهيب منه وممارسات متعددة متنوعة: إما لتحليق ارتقائي في ملكوت السماوات وإما سباحة هادئة في بحر عميق.

□ □ □